المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

لغـــة الشـدياق

بقلـــم
شفيق جبرى
عضو مجمع اللغة العربية في دمشق

اذا عدّ الكتّاب الذين اولعوا بلغة العرب في القديم والحديث وغاروا عليها ودافعوا عنها حتى امتزج هذا الولع وهذه الغيرة وهذا الدفاع بلحم كل واحد منهم وعظمه ودمه ، بروحه وقلبـــه ، كان الشـدياق في مقدمة هؤلاء الكتاب فقد حمل لواء اللغة كل حياته ، فما جاء ذكرها في موطن من مواطن كتاباته الا أضاف اليها صفة الشرف والجلالة فقال : لغتنا الشريفة لغتنا الجليلة ... انه يؤمن باتسـاع هذه اللغة الايمان كله ، فهي في نظره عبـــارة عن حركات الانسان وافعاله وافكاره ، ورأيه في هذا المعنى نظير رأي « اناتول فرانس » فى لغته الفرنسية ، يرى « اناتول » ان لغته فيها عواطف قومه وافكارهم واقوالهم وافعالهم ، فهي روح الوطن ولحمه ودمه .

اجل ، آمن الشدياق بسعة لغة العرب وكثرة مفرداتها ، ولقد اشار الى هذه السعة في ذكره هوى من اهواء النفس واريد به العشـق ، فقد طالع شرح المشارق لابن مالك في مراتب العشق فرأى ان اللغة العربية شرك للهوى ، اذ يوجد فيها من العبارات الشائقة ، المتصببة ما لا يوجد في غيرها ، بخلاف لغات العجم فانها لا يوجد فيها الاّ لغة واحدة بمعنى المحبة يطلقونها على الخالق والمخلوق .

ومن أجل ولع الشدياق بلغة العرب سخر من الذين يجهلونها من قومه اشدّ سخرية ، وندد بهم وبلفظهم ، من هذا القبيل سخريته من التجـار فى عصره الذين كانوا يكتبون : لق بدلا من : لا ، وقمضة بدلا من : امضاء وخصارة بدلا من : خسارة حتى قال مرّة :

« نعم ، ان التاجر لا يطلب منه ان يكون شاعرا او رئيس ديوان الانشاء ، ولكن عار عليه ان يصرف ادراكه كله في معرفة الثوب الخشن من الرفيع ، ويرتدي بلباس الغفول عن أشرف ما ميّز الله به الانسان عن البهيمة وهو النطق » .

وكما سخر من اولئك التجار فقد سخر من كتاب الصكوك في بعض البلاد الاسلامية ونقد لغة الحكام والفقهاء ، ويتبين هذا كله في كتاب رحلته مما يدل على عنايته باللغة وحرصه على سلامتها ، ولما زار المتحف البريطاني في « لندن » ودخل دار الكتب آلمه ان لا يذكر عدد الكتب العربية في الفهرس، وحمل ذلك الاهمال على عادة الانكليز من عـدم المبالاة بلغة العرب وان يكن قد دوّن بها من العلوم والفنون ما لم يدون في لغة شرقية قط ، ولقـد اغراه ميله الى لغـة العرب بالميل الى كل مالـه صلة باللغات عامة ، حتى لغة البراهمة .

لقد غلبت عليه النزعة اللغوية فهو يستطرد الى أمور اللغـة في أثناء كتاباته ولـم يقتصـر فى استطراده على لغة العرب وحدها ولكنه يذهب أحيانا الى اللغات الاجنبية كما فعل في تحليل لفظة « كاليفورنية » فقد قال : وهذه اللفظة محرفة مـن لفظتين في اللغة الاسبانيولية معناهما : الفرن الحامي، ولا يبعد أن يكون ذلك عربيا فان كالي : محرف عن: قالي من : فليت اللحم ونحوه ، وفورنيا من : الفرن»

لم اذكر ماذكرت الا للدلالة على فرط ميل الشدياق الى روح اللغة ، فهو مطبوع على هـذا الميل ، انه امام من ائمتها البارزين ، تبحر في دقائقها وجلائلها ، وتصرف في كل باب من ابوابها واحاط بمفرداتها في كل افق من آفاق الحياة ، فلا يكاد يفتقر الى لفظ في تصوير حركة او فكر ، وتفنن فى استعمالها كل التفنن فاقتبس من القرآن الكريم ، واستخدم الالفاظ على حقيقتها لتفقهه فى اللغة ، فتمكن من الالفاظ التي تصور تشـويه الانسـان واشكاله وامراضه وحركاته سـواء أكانت هـذه الحركات ماديّة أم كانت نفسية ، واحاط بلغـة اللباس والاكل والمسكن والعمل كما احاط بالالفاظ التي تصور صفات النساء والرجال ومال في بعض كلامه الى لغة العامة في أكثر النواحي ولجأ الى بقايا

الفصاح واستعمل بعض الالفاظ الاجنبية ووضع اسماء لمسميات حديثة ، عاش منها ما عاش ومات منها مامات ، واخيرا طوع اللغة في طائفة من المواطن فاشتق من الالفاظ الاعجمية افعالا واذا توسعت في هذا الاستقصاء خفت ان اضيع في مجاهل هذا التوسع ، فما عليّ الا الاستشهاد ببعض نماذج مما تقدمت الاشارة اليه .

لقد استضاء الشدياق بضياء القرآن الكريم فقلب النظر في آياته واقتبس من بلاغته وزيّن اكثر كلامه بما اقتبسه من هذه حتى كثر في عباراته ادماج بعض الآيات والاستعانة ببعض الالفاظ فمن ذلك قوله : يوسوس في صدور الناس ... اذا جاء فاسق ... يسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا ... على ابصاركم غشاوة ... النفاثات في العقد .. ونجد في بعض الاحيان انه يردد آيات بأجمعها تتخلل كتاباته او يتأدب باداب اسلوب القرآن الكريم مثل قوله :

« جميع الرهبان والراهبات والعابدين والعابدات والزاهدين والزاهدات ، والناسكين والناسكات والقانتين والقانتات » الى آخر هذا المقطع الذي كثر فيه هذا الاسلوب .

ليس المهم ان احصي المقاطع التي استعمل فيها الشدياق الفاظ القرآن وآياته واقتبس فيها من هذه الالفاظ والايات ، فهذا امر يطول ، ولكن المهم ان نعرف ذوق الشدياق في البلاغة فحسبه ان يكون القرآن ضياءه الذي استضاء به وبحره الذي غرف منه وما نظن ان كاتبا من الكتاب يصل كلامه الى القلوب دون ان يتدبر القرآن ويحفظ الكثير من الفاظه وآياته ويستشهد بها في مواضع كتاباته حتى تكون له زينة يزين بها ما يعبّر به عن فكره وذوقه وشعوره .

الا ان الافق الذي يدل على احاطة الشدياق بأسرار الالفاظ انما هو تفقهه في اللغة ، فلما قال في بعض كلامه : ان اللغة عبارة عن حركات الانسان وافعاله وافكاره فانه لم يقل هذا القول عبثا ، فقد كان يؤمن بقوله ويثق بقدرته على انفاذ هذا القول فلسنا نمرّ في كتاباته بناحية من نواحي الحياة ، دقيقها وجليلها الا رأيناه في هذه الناحية يستعين بالالفاظ التي تصوّرها على حقيقتها ، فهو يصب كل لفظ في القالب الذي وضع له ، فاذا عرض له مثلا تصوير ما يشوه وجه الانسان قال : خرم انفه ... او شرم شفته ... او قلع اسنانه ... او كشط وجهه ... او قوله في وصف المراة : مخلوعة اليد ، ملحوقة العين ، من اللحق وهو ضرب العين بالكف خاصة او قوله : وقد زيّن بالذلف اي صغر الانف .

وكذلك الحال اذا اعرض له الافصاح عن اشكال الانسان او امراضه او حركاته ولم يكن نصيبه من لغة اللباس والاكل والمسكن والعمل وصفات النساء والرجال اقل من نصيبه من لغة الامور التي سبق ذكرها ، والادلة على ذلك يطول ذكرها ، فحسبنا الاشارة ، فانا اذا ذهبنا الى في تفقه الشدياق في اللغة ضلت بنا المذاهب ، فان رجلا طالع من كتب اللغة ما طالع وتعقب فئة من اصحابها لا تستغرب احاطته بالالفاظ ومعاينها ولا يستغرب استعماله لهذه الالفاظ في مواضعها ، الا ان الامر الذي نشهده ان فرط تفقهه في اللغة قد ادى في بعض الاوقات الى غرابة الفاظه وكأنه كان يشعر بذلك حتى اخطر في مواطن كلامه الى تفسير غرائب الفاظه ، فهو يذكر اللفظة الغريبة ويلحقها بمعناها ، فالافراط في التفقه في اللغة وفي الحرص على استعمال كل لفظ للمعنى الخاص به قد نشأ عنه احياء الفاظ غريبة لا تعيش في عصرنا ، من هذا الشكل استعمال الشدياق للمتاعب وهي مسايل الماء او للمناصع وهي المواضع التي يتخلى فيها للبول ، فان بعض الفاظه الموضوعة لمعنى خاص بها لم تعش كلها فقد قامت مقام المتاعب : مجاري الماء ومقام المناصع : المباول وهلم جرا ، فليس كل لفظ موضوع لمعنى خاص به يكتب له ان يعيش فان الاسهل يغلب على الاصعب ، والارق يغلب على الاخشن وكيف كان الامر فانا اذا احببنا ان نتخذ من تفقه الشدياق في اللغة دليلا على قدرته وحدها دون النظر الى امر احسن يتصل بحياة ما يستعمله لها لالفاظ او بموتها فانا نجد ان الشدياق قد اجتمعت له اسباب كثيرة من هذه القدرة لم تجتمع الا لقليل من الائمة .

وعلى الرغم من قتباس الشدياق من القرآن الكريم وطول باعه في اللغة وتمكنه من اسرارها وخصائصها انا نجده في كبر من المواضع يلجأ الى لغة العامة ، لا يبالي بشيوعها في كتاباته ، ولست احمل هذا على تقصير منه في أساليب التعبير ، فهو في هذا المعنى ينسحب على اذيال الجاحظ ، ففي كتاب البخلاء طائفة من الفاظ العامة استعملها الجاحظ ولم يبال بذلك ، لقد مال الشدياق الى بعض الفاظ العامة في كثير من النواحي ، في اللباس والسلاح والمعاملات واشباه ذلك ، الا انه مع لجوئه الى الفاظ العامة في بعض الاحوال كان يلجأ الى

بقايا الفصاح واعني بها التي نظنها عامية وهي فصيحة مثل الكركرة والتجريس والبلاني والفوطة والطلحية وغيرهـــا .

وكما احيا الشدياق طائفة من مفردات بقايا الفصاح فقد احيا طائفة من جمل العامة على نحو ما يظهر ذلك للذي يطالع كتبه وعلى الرغم من تنديده بالذين يستعملون في كلامهم الالفاظ الاعجمية ومن مطالبة علماء اللغة لوضع اسماء لمسميات افرنجية فقد استعمل هو فقه الالفاظ الاعجمية مثل : البولفار ... والبرنيطة ... والبنطلون واضراب هذه المفردات واذا وضع اسما في العربية لبعض مسميات افرنجية فان اكثر هذه الاسماء التي نبشها من المعجمات لم تعش في عصرنا ، وانما حلت محلها الفاظ غيرها ، فالكرنتينا مثلا سماها : المعتزل ولكن الحجر الصحي قامت مقام لفظة المعتزل ، ولا اريد الاسهاب في هذا الباب فان كثيرا من الفاظه قد مات يومنا هـذا .

واخيرا كان يميل الى تطويع اللغة فاشتق من الفاظ اعجمية بعض الافعال فقال : ملّطه اي صيّره مالطيا ... وهم ظنوا اني تناكزت في بلادهم اي صرت : انكليزيا ، ونحن نجد مثل هذا التطويع في لغتنا ففي معجم الفيروز ابادي : سقفه اي حيره هذا آخر ما احببت الاشارة اليه من خصائص لغة الشدياق كاقتباس من القرآن وتفقهه في اللغة وغموض بعض الفاظه الغريبة التي احياها ولم تعش وميله احيانا الى لغة العامة واحيائه لبقايا الفصاح واستعماله لبعض الالفاظ الاعجمية ووصفه طائفة من الاسماء لمسميات حديثة لم يعش اكثرها، وتطويعه للغتنا مثل اشتقاقه افعالا من الفاظ اعجمية ، ولست ادري بعد هذا كله هل استطعت ان ادل على يسير من خصائص لغة الشدياق فما اظن أن كاتبا من الكتاب فى عصرنا الحديث تمكن من لغة العرب تمكنه فلا يخطر على باله خاطر ولا تقع عينه على مشهد من المشاهد في كل مهب من مهاب الحياة الا انقادت اللغة اليه فوجد لكل حركة من الحركات ولكل فعل من الافعال ولكل فكر من الافكار الصورة المناسبة ، وهذه هي معجزته ، وقد يجوز انه قد اسرف في التفقه في اللغة حتى ادى به هذا الاسراف الى ابراز نوادر الالفاظ وغرائبها مما قد مات اكثره فى ايامنا ، وقد كان فضله اعظم لو عمد لابراز ما يمكن استعماله من الالفاظ السهلة ، الخفيفة ، اما احياء الفاظ لاتناسب ذوق العصر فهذا عمل لا نفع فيه ، على ان هذه الملاحظة لا تصرفنا عن راينا في سمو مقام الشدياق في اللغة وعلو منزلته في معرفة مفرداتها ووفرة نصيبه من خصائصها ، وهذه الملاحظة لا ترد الا في كتاب : « الساق على الساق » ، اما كتاب الرحلة وجريدة الجوائب فانا نجد اللغة فيهما مصقولة الذوق صافيا ، فقد مال فيهما الى الانشاء المرسل والالفاظ المألوفة التي تصلح لكل عصر وخلق للصحافة اسلوبها الخاص بها ، فاذا رايناه في كتابه: الساق على الساق اماما من ائمة اللغة الراسخين فانا نجده في كتاب الرحلة وجريدة الجوائب كاتبا في مقدمة الكتاب الخالدين الذين يناسب بيانهم كل عصر .